

في مشروعية إسناد الأفق التداولي إلى الذكاء الاصطناعي:

مسألة نقدية لحدود الفعل التواصلي في زمن الخوارزميات

On the Legitimacy of Attributing the Pragmatic Horizon to Artificial Intelligence: A Critical Inquiry into the Limits of Communicative Action in the Age of Algorithms



نريمان كوسة *

جامعة مصطفى اسطمبولي معسكر

koussanarimen@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2026/03/01 تاريخ القبول 2026/05/24 تاريخ النشر 2026/06/08



ملخص:

تستقرئ هذه الدراسة مضايق الفعل التواصلي إبان التحوّلات البنيوية التي أرستها سلطة الخوارزميات المعاصرة؛ فإذا كان القلق الوجودي قديما قد انبجس من محلّ الندرة، فإنّ مأزق الرّاهن بات شاخصا في طوفان السيولة؛ تلك التي صيرت التواصل حجابا كائفا تحت ركام البيانات.

يعتمد البحث منهجا تحليليا نقديا يسعى للكشف عن المفارقة الكامنة في الذكاء الاصطناعي؛ حيث يتحوّل فيض المعلومات إلى حجاب يمنع الرؤية ويُقيّد فضاء الأصالة. تخلص الدّراسة إلى أنّ الاستغراق في السيولة الرّقمية أدّى إلى استلاب المعنى داخل النسقية الآلية، مأزقا أفضى إلى حشو الوجود بمعانٍ نمطية، ممّا يفرض ضرورة إعادة الاعتبار لمقومات التواصل البشري العميق بعيدا عن التّنميط التّفني. وتجلي الورقة البحثية

* المؤلف المراسل

إطاراً فلسفياً لتفكيك حدود التفاعل في الفضاء الرقمي، رَومًا لاستعادة المعنى في زمن الامتلاء الزائف.

الكلمات المفتاحية: الذكاء الاصطناعي؛ الفعل التواصلي؛ الأصالة؛ الخوارزميات؛ الفضاء الرقمي.

Abstract:

This study explores the impasses of the Communicative Action amidst the structural transformations established by the contemporary authority of algorithms. While existential anxiety has historically emerged from the realm of scarcity, the current predicament is manifested in a deluge of fluidity one that has rendered communication a dense veil obscured beneath the accumulation of data.

The research employs a critical-analytical methodology that seeks to unveil the inherent paradox within Artificial Intelligence, wherein the surplus of information transforms into a veil that obstructs vision and constrains the realm of authenticity. The study concludes that immersion in digital fluidity has led to the alienation of leaning within mechanical systems, resulting in the saturation of existence with stereotypical significations.

This necessitates a reconsideration of the foundations of profound human communication, independent of technical standardization. Consequently, this paper presents a philosophical framework to deconstruct the boundaries of interaction in digital space, aiming to reclaim meaning in an era of Pseudo-Fullness.

key words: Artificial Intelligence; Communicative Action; Authenticity; Algorithms; Digital Space.

مقدمة:

يستوي الفعل التواصلي في كُنه الوجود الإنساني معراجاً للتفاهم وقواماً للهوية؛ فهو محض إشراقٍ يقع بين ذاتين أو أكثر، وقصدية رومها الحقيقة، يتجاوز في جوهره رتبة نقل المعلومة ليحقق بُل اللقاء. غير أنَّ الراهن الحضاري يمرّ اليوم بمضايق وجودية أرسنها سلطة الخوارزم، حيث انحسرت وحشة الندرة التي كابدها الأقدمون، ليحلَّ محلّها طوفان

السيولة الرقمية؛ تلك التي صيرت الكلمة حشواً، واستحالت بالمعنى إلى ركام كاثف من البيانات.

وفي قلب هذا الغليان التقني، يبرز الذكاء الاصطناعي مدّعياً حيّازة أفق تداولي يحاكي النطق البشري، ممّا يضعنا أمام مفارقة ابستمولوجية كبرى. ممكن الإشكال في هذا البحث يتجلى في الفجوة القائمة بين كفاءة المعالجة الرمزية ومشروعية الكينونة؛ إذ يتمحور التوتر الأنطولوجي الناتج عن طفرة الذكاء الاصطناعي وتوغّله في الفضاء التداولي البشري حول قدرة هذه النظم على محاكاة الفعل اللغوي وتوليد أنساق رمزية معقدة، مقابل افتقارها البنيوي للقصدية (Intentionality) التي تُحسب على أنّها الأساس المتين للوعي الإنساني الرصين.

وعليه، يمكن بلورة الإشكال المركزي للموضوع كالآتي:

إلى أيّ مدى يصحّ إسناد صفة الفعل التواصلي إلى كيانات خوارزمية تشتغل في معزل عن الذاتية وقصدية المعنى المعيش، ودون أن تنخرط في أفق الاعتراف البيّناتي الذي يقوم به التواصل؟

ويتفرّع عن هذا الإشكال جملة من التساؤلات الموجهة لمسار البحث:

1. كيف استحال الكائن الإنساني من ذات قاصدة فاعلة إلى بنية قابلة للتكميم والمعالجة، وما مآلات هذا الانحاق في أفق ما بعد الإنسانية؟
2. بأيّ منطق ابستيمي يمكن إسناد الأفق التداولي إلى نسقية خوارزمية تقتات على سيولة المعطى المعلوماتي، وتفتقر إلى النأي الأخلاقي وقصدية الخطاب؟
3. هل يؤدي الاندماج التقني إلى توسيع مجال التواصل، أم أنّه يؤسس لحصار دلالي جديد قوامه الامتلاء الصوري والمعنى المفرغ؟
4. وهل يمكن لحكمة التواصل أن تستعيد مركزية الذات وتنقذها من قبضة العدمية الرقمية وصنمية الخوارزم، أم أننا بإزاء قطيعة أنطولوجية مع شروط اللقاء التداولي؟

ينطلق هذا البحث من جملة فرضيات مؤدّاهَا أنّ:

— إسناد الفعل التواصلية إلى الآلة ينطوي على خديعة تداولية؛ إذ إنّ ما يبدو تواصلًا ليس سوى محاكاة صورية تستلّب المعنى من سياقه الوجودي لتعمل على إيداعه في قوالب التنميط التقني.

— الاندماج التقني لا يؤدي إلى تعزيز الذات بقدر ما يساهم في نزيف المعنى، حيث تغترب الكينونة في تفاصيل قوالب صمّاء تقتل عفوية الوجود وقصديته.

— التواصل مع الآلة يظلّ محاكاة أحادية تفتقر إلى شرعية البيندائية، لأنّ المعالجة الخوارزمية، مهما بلغت من التعقيد، تعجز عن ملامسة جوهر اللقاء التداولي القائم على الاعتراف والفهم المشترك.

— إنّ المخرج من تهاافت الدلالة لا يتحقّق إلّا باستعادة السيادة الروحية للذات الواعية بوصفها الحامل الوحيد لقصدية المعنى وحكمة التواصل.

ورومًا للإجابة عن هذه التساؤلات والعمل على تحقيق جملة الفرضيات، يعتمد البحث منهجًا تحليليًا نقديًا، يعمد إلى تمييز الحد الفاصل بين تدبير العلامة خوارزميًا وتحقّق القول في مقام التخاطب.

وتهدف هذه الدراسة — في غايتها القصوى — إلى تجلّية الفوارق الجوهرية بين المعالجة الآلية والفعل الإنساني، سعيا لاستعادة المعنى المفقود في زمن الهيمنة الخوارزمية، ورسم حدود واضحة لمشروعية التفاعل في الفضاء الرقمي المعاصر.

1) أنطولوجيا الكائن التقني: من فوبيا التكنولوجيا إلى استلاب الذات الممتدة

يستفتح هذا المبحث مقامه باستنطاق غربة الكائن في لجة الحضارة التقنية، حيث تشرع الكينونة في مفارقة أسماها الفطرية لتلتجف بصيرورة وسيطة تُعيد تخطيط تضاريس الوجود ضمن بنية الميكانيكا. وفي هذا المنعطف تحتمل منازل أنطولوجية بين رؤيتين تتجاذبان

مصير الإنسان في زمن الخوارزم: رؤية تتوجس من تغريب ماهوي يطمس بوارق اللطيفة الإنسانية، وأخرى تستبشر بانبعجاس التقنية امتدادا لجلبة الكائن وسعيه الحثيث إلى تجاوز حدوده الجسدية.

ففي المقام الأول، تنبثق "فوبيا التكنولوجيا" (Technophobia) بوصفها حساسية وجودية تستشعر انمحاق الفردية تحت سطوة التكميم، فتتقلب الوشائج الروحية إلى رقوم بيانية، وتُستدرج الذات الأخلاقية إلى نسق جبري يتم قياس القيم فيه بمقاييس النمذجة. وعلى هذا الأساس، تتقلب الكينونة في مضايق الصياغة الرياضية، ويصبح المعنى أثرا باهتا في أرشيف المعالجة.

وفي المقام الثاني، يتراءى "الولع بالتكنولوجيا" (Technophilia) باعتباره خطابا تعزيزيا يقرأ الآلة قراءة باطنية، فتظهر التقنية كأنها طور من أطوار تشكّل الإنسان، تنتقل فيه الوساطة من مرتبة الأداة إلى مرتبة التماهي، فتتبلور كينونة هجينة يتعالق فيها الطبيعي بالاصطناعي تعالق الصورة بالمرآة. غير أنّ المفارقة تكمن في لجوء هذا التيار إلى استخدام لغة أخلاقية متعالية (Moralistic Language) لتسويغ فرض معايير القياسية الجافة، محاولا بذلك إضفاء مشروعية قيمية على نسق يقوم في جوهره على حياد الآلة وتكميم الوجود.¹

وبين حساسية الاستلاب التي تخشى تبدّد المعنى في متاهات السيولة الرقمية، ونشوة التعزيز التي تطلب تجاوز محدودية الجسد، يتحدد أفق هذا المبحث في تشریح هذه التوضعات الوجودية للذات أمام هيبة الآلة. فالمشهد الأنطولوجي ينشطر إلى رؤيتين تتقابلان في المنطق والمآل: رؤية يطفح فيها سؤال الاغتراب، وأخرى يتكتف فيها سؤال الامتداد، وفي المسافة بينهما تتولد ثغور الإشكال التداولي الذي يروم هذا الجزء استكناه مكنونه.

1-1 اغتراب الكينونة في مضايق الزحف التقني:

ينعقد هذا المطلب على استكلاف تلك التصدعات الماهوية التي أحدثتها التوغل التقني في صرح الذاتية الإنسانية، حيث انتقلت التقنية من مرتبة الوساطة الأداتية إلى أفق بنيوي يعمل جاهدا على إعادة تنظيم شروط الحضور الإنساني وفق منطق التكميم والنمذجة. وفي هذا الانزياح تتعرض الكينونة لنوع من الانضغاط الأنطولوجي، إذ تنسحب من أفقها القيمي المفتوح لتدرج ضمن شبكات التصنيف والمعالجة، فيمسي الوجود قابلا للتقييم والمساومة، وتصبح الهوية أثرا محصورا في الإحصاءات داخل اقتصاد البيانات.

ومن هذا المنطلق، يتخذ سؤال الاغتراب وجهها مغايرا، كونه يمثل انخراطا مفرطا في نسق يعمل على تعريف الإنسان بلغة الاحتمال والخوارزم. وفي هذا السياق تتراءى فويا التكنولوجيا بوصفها وعي استباقي بما يعتمل عمق هذا التحول؛ إذ تستشعر تآكل الخصوصية وتراجع المجال الذي تشكل فيه فرادة الكائن وقصديته. ومع تمدد العقل الأداتي في صورته الرقمية تتلاشى القيم النوعية لصالح معيارية صورية تقاس فيها التجربة بقدرتها على الاندراج داخل قوالب المعالجة.

أولا: تداوب العفوية في حدود الشيئية: نحو نقد النزعة الأداتية

يتم استدعاء العفوية الإنسانية هنا إلى محكّ الفحص بوصفها خبرة أصابها الانزياح تحت وطأة التمدد التقني؛ الموضع الذي فقدت فيه التجربة تلقائيتها ل يتم استدراجها إلى انتظامات جاهزة ومسبقة من الضبط والمعالجة قادت العالم الذي كان ينكشف مجالا للمشاركة الفعالة إلى واجهات ترشيحية تشتغل على ترتيب الممكن وفق منطق القابلية للقياس، ليصبح الفعل اليومي — من انتقاء اللفظ إلى نسج العلاقات — واقعا تحت سلطان بني مستترة تقنن شروط الظهور وتُحكم شروط الاحتجاب.

ومن هذا المسار تستمد المساءلة الهايدغرية راهنتها؛ وذلك عن طريق تبدي ماهية التقنية بوصفها نمط انكشاف (Gestell) يقوم بوضع الكائنات البشرية في موضع

الاحتياط الدائم. فالهاتف الذكي على سبيل التمثيل، لا يقدم تركيبته أداة للتواصل فحسب، وإنما يعمل على إعادة صناعة الانتباه الإنساني في صورة مورد قابل للاستخراج. فبينما يرى التفكير العامي أنّ التقنية محض جهاز (Instrumentum) أو فعل إنساني للسيطرة، ينكشف لنا مع هايدغر أنّ الركون لهذا التصوّر يمثّل قيّدا يمنعنا من إدراك مدى انجbas الحرية تحت وطأة هذا الهوس المادي الذي حوّل كلّ شيء — بما فيه الكينونة ذاتها — إلى محض موضوع للاستخدام.²

وتتعمق هذه البنية مع ما أشار إليه إيان باربور Ian Barbour من تحوّل الاستجابة الإنسانية للتقنية إلى أفق معياري يتم قياس القيمة فيه بمدى القابلية للاندماج داخل النسق، ومع تحذير ديفيد بولتر J.David Bolter من إعادة توصيف الإنسان بأنه محض "وحدات بيانية" قابلة للقياس.³ ففي الفضاءات الرقمية التي يتم إدارتها بالخوارزميات، يتجدد ويتحين تعريف الحضور الإنساني من خلال ملفات سلوكية وتوقعات احتمالية؛ حيث يصبح الذوق الثقافي، والموقف السياسي، بل وحتى العاطفة، معطيات قابلة للتنميط والتحكم.

ولما كان من مقتضى الهيمنة الأداتية ردّ الكثرة إلى مبدأ الكفاءة، صحّ ما قرره هيربرت ماركيز في تحليل صورة الإنسان ذي البعد الواحد؛ حيث يتم استيعاب إمكانات الاختلاف ضمن نظام الملاءمة، فيؤول التعدد إلى تجانس مقنّع. فآليات الترشيح، وإن ظهرت في صورة توسيع لحيز الاختيار، أفضت بالضرورة إلى تضيق عنصر المفاجأة، لأنها تحكم الممكن بشرط القابلية للحساب. ولعل هذا الانضغاط يبلغ مداه فيما نبتّه إليه هيوبرت دريفوس Hubert Dreyfus، في كتابه "عن الانترنت" (On the Internet) حين قام بتوصيف حالة الوجود الساكن في الشبكات؛ حيث يتراجع البعد المهاراتي المتجسّد لصالح حضور وسيطي منزوع المخاطرة؛ وهذا ما سيؤول إلى حضور معلق تتسبب فيه التكنولوجيا التي سوف تُغيّر الكثير ممّا يعنيه أن يكون الإنسان إنسانا.

في هذا الأفق، يتعيّن القلق الوجودي الذي يتخبّط فيه الإنسان المعاصر، إذ نجده في قمّة الضياع، يتقدم خطوة إلى الأمام في مضمار التقنيّة، ويتراجع خطوة إلى الخلف على مستوى جوهر حضوره الأصيل، فيؤدّي هذا التوتر بعد ذلك إلى فقدان العفويّة ومعها الهوية، وشرخ عميق في السّلامة النفسيّة والروحيّة لهذا الكائن.⁴

ثانياً: تكميم الوجود ومحق الفردية في النمذجة الخوارزمية

تستعيد الكينونة الإنسانيّة اليوم حضورها في أفق التمثيل الحسابي، غير أنّ هذا الحضور صار مشروطاً بإملاءات النماذج الاحتمالية التي تسعى لاستباق الفعل الإنساني وتحويله إلى امتداد رياضي للماضي. في هذا الحول، ينحسر أثر الفرد الفاعل ليصبح سوى عنصر ضمن شبكة توقعات ميكانيكية تمحق سيادته الأخلاقية.

وتكتسب قراءة هابرماس للنشاط الأداتي بُعداً راهنياً هاماً، إذ تظهر انفصال المعرفة عن أفق التفاهم، فتصبح محصورة في القدرة على الضبط والتنبؤ، محكومة بقواعد تقنيّة تتأسّس على معرفة تجزيّة بحتة، مدارها حصر البشر في "تنبؤات شرطيّة" تتعلّق بالوقائع القابلة للملاحظة والقياس.⁵ وبذلك، يتوارى الإنسان الأخلاقي ليرز محله الإنسان الآلي المحكوم بقوانين الحركة الممنذجة.

وتتجلّى مفارقة النمذجة في أنّها كلما ازدادت دقّة في تمثيل الأثر السلوكي ابتعدت عن التقاط المعنى الذي يصدر عنه. فأنظمة التعرف على الانفعالات، على سبيل التمثيل، تقرأ الوجه بوصفه تجمّعاً لنقاط قياس، بينما يظلّ التعبير الإنساني حدثاً لا يستنفد في هندسة الملامح، لأنّه يتشكّل ضمن سياق حيّ من التاريخ والنية والالتفات المتبادل.

ومن هذا المنظور تتمثّل القاعدة التي أشار إليها بولتر بخصوص تحوّل الإنسان إلى بنية معلوماتيّة وتجردّه من أبعاده الروحيّة، لitem استبداله بوحدات بيانيّة (Data Units) تخضع حصرياً لمنطق الآلة،⁶ توصيفاً لثقافة حضور جديدة تقذف بالذات بعيداً عن مقام الفهم

والإبداع والاختلاف والحرية؛ فالمستخدم الذي تتم مساومته على ذائقته الثقافية عبر أنظمة التوصية التي تسيّرهما جهات معينة هو مسلوب الكينونة والهوية.

ولعل ما يشفّ من طيات هذا التحول هو ارتحال في ماهية الإنسان نفسها؛ فالملاحظ أنّ الكائن البشري لم يعد ذلك الجوهر المكتفي بحدود طبيعته الأولى، وإنما أضحي كينونة مفتوحة على إمكاناتها، تتوسط فاصلاً دقيقاً بين ما ولدت عليه وما تصنعه يديها. فكما غير اكتشاف الكتابة ذاكرة الإنسان حين أخرجها من عتمة الصدر إلى ضوء اللوح، وكما وسعت العدسة البصرية أفق الرؤية فصار العالم يرى على نحو لم يكن معهوداً، كذلك تفعل اليوم تقنيات التعزيز، وهو ما يستدعي نقل البحث إلى مستوى مساءلة كينونة المهجين ورهانات تموضعها في منزلة بين الطبيعة والاصطناع.

1-2 كينونة المهجين ورهان التعزيز في منزلة بين الطبيعة والاصطناع:

إذا كان التحليل السابق قد كشف عن نزيف المعنى تحت وطأة العقل الأداتي، فإنّ النظر يتجه هنا إلى استجلاء صيرورة مغايرة، تراهن على إمكان صناعة إنسان مُستأنف، يقيم في منزلة بين معطى الطبيعة وأفق الاصطناع. إنّنا أمام مقاربة فلسفية تقلب الطاولة على إرث فويا التكنولوجيا؛ لتنظر إلى الآلة كطبيعة ثانية ينكشف عبرها احتياط الإمكانات البشرية التي عجزت عنها الطّباع الأولى.

ويستهدف هذا المسعى استرداد مشروعية الاندماج الأنطولوجي بين الإنسان ومدغماته غير العضوية، ليصيغ هويته بوصفه "هجيناً أنطولوجياً" يتمرد على الانحباس في التعريفات الجوهريّة الصلبة التي حصرت الإنسان في حدود جسده الفاني. وضمن هذا المنظور يضحى الاصطناع تتمّة للطبيعة، ويأخذ التعزيز معنى الارتقاء بوظائف العقل والحواس إلى مدى تتكشف فيه إنسانية جديدة قوامها التفاعل الخلاق بين العضوي والتقني.

أولاً: الذات الممتدة وشرط الاندماج التقني

تظهر الكينونة الإنسانية في هذا الطور وقد صارت الوسائط التقنية ملابسة لوجودها، فتحول حضورها من رتبة التصاحب الخارجي إلى رتبة التداخل في بنية الإدراك والعمل معا. وعند هذا الحد تنكشف الإنسانية في صورتها المتحركة، بما هي قوة متشوفة إلى تمامها، تستدعي من خارجها ما يصير جزءا من نظامها، كما يستدعي البصر الأنوار ليلبلغ كمال الإبصار.

وعند هذا الحد تبدى الذات ممتدة في أجهزتها، جارية في وسائطها، متوزعة الفعل بين اللحم والرمز، وبين الذاكرة الحية ومستودعات التخزين الشبكي، حتى يصير الحد الجلدي علامة بيولوجية لا تستوعب المدى الحقيقي للحضور الإنساني. فالناظر بعدسة مصقولة، وصاحب القلم المنتظم بإيقاع صناعي، والجراح الذي تسري يده في جسد بعيد عبر ذراع روبوتية، كل أولئك يمثلون أطوارا لفعل واحد تتكشف فيه الكينونة عبر أدواتها كما يتكشف المعنى في حروفه.

وعلى هذا المعنى جرى القول عند إيان باربور حين جعل التقنية ميدانا لانكشاف القدرة الإنسانية واتساع مجالها الإبداعي، إذ تفتتح بها طاقات الفعل وتتسع دوائر الاختيار. ويزداد هذا البيان رسوخا مع تصور الامتداد المعرفي عند بروس جرينفيل Bruce Grenville حيث يرى أنّ التكنولوجيا استحالَت تعويضا حتميا عن الضعف البشري الفطري، أو زيادة في أداء الإنسان، فنحن نتلقى مساعدة الآلات باستمرار، سواء كانت أجهزة الكمبيوتر، أو المركبات، أو الأسلحة العسكرية التي توسع وتكبر وجودنا في العالم الطبيعي، أو عن طريق الإضافات الصناعية، مثل أجهزة تنظيم ضربات القلب، والأطراف الصناعية، والنظارات، التي تحافظ وتعزز وجودنا الجسدي المادي.⁷

ومن جهة التقويم العقلي للذكاء، جاءت تصنيفات ستوارت راسل Stuart Russell وبيتر نورفيج Peter Norvig جامعة لصور الفعل العاقل، جاعلة المدار على جودة الإنجاز في سياقه، وهو المعنى الذي تجلّى في محكّ تيورينج، حيث صار التمايز قائما على نمط

الحضور في التواصل المكتوب، وعلى القدرة على توليد الاستجابة الملائمة، فانتقل النظر من البحث في مادة الفكر إلى تتبع آثاره. وعند هذا المنعطف، تصبح صورة المهجين مشروعاً وجودياً مشروعاً، لأنّه أصبح بمثابة الوكيل العقلاني يملأ تلك الفجوات التي خلّفها القصور الطبيعي للبشر.⁸

جليّ إذن، أن يتم احتساب مشروع تألف القوى العضوية والوسائط التقنية في نسق واحد، فتتسع به القدرة على الإدراك والتأثير، ويغدو التعزيز هيئة من هيئات تحقق الماهية في طورها التاريخي. فالطيار الذي يرى عبر الرادار، والباحث الذي يحمل مكتبته في فضاء سحابي، والإنسان الذي يودع ذاكرته في أرشيف رقمي، جميعهم يشهدون لانتقال الكينونة من الانحصار في الموضوع إلى الامتداد في الشبكة.

وهنا يأخذ القول مداه في إعادة رسم الحد الفاصل بين الطبيعة والصنعة، إذ تصير الصنعة طريقاً لظهور ما أودع في الطبيعة من إمكان، ويصبح التعزيز سلماً ترتقي عليه القوى العاقلة إلى مراتب من الفعل لم تكن لتتكشف في طورها الأول. فتظهر الإنسانية عندئذ بما هي ماهية متحركة، قوامها الامتداد، ونظامها التحقق عبر الوسائط، وغايتها استيفاء ما أودع فيها من قابلية التجاوز.

ثانياً: إشكال الأصالة بين هواجس التبدّل وأفق الارتقاء

يتحدد سؤال الأصالة في طور تاريخي صارت فيه الكينونة تنسج وجودها عبر وسائط تتخلل الجسد ولا تنحصر في حدوده، حتى أصبح الإنسان يباشر العالم بامتدادات رقمية ترفده كما ترفد الحواس أعضاءها. وهنا يتقاطع تصوران: أحدهما يتمسك بصورة الإنسان بوصفه بنية مكثفة بحدودها العضوية، والآخر يرى الماهية فعل تزايد واستكمال دائم، تتكشف طبقاته كلما استحدثت العقل أدوات أوسع لحضوره.

وتستمد أطروحة الارتقاء وجاهتها من تصوّر يجعل التعزيز طوراً من أطوار التخلّق الإنساني؛ فكما انتقل الكائن من التوطن في الطبيعة إلى إنشاء المدن، ومن الاقتصار على

الصوت إلى تشييد العوالم الرمزية، فإنه ينتقل اليوم إلى هندسة شروط حضوره ذاتها. وفي هذا السياق تبرز مشروعات إطالة العمر الحيوي، وزراعة الواجهات العصبية، والبيئات الغامرة، ومحاولات يتم وفقها إعادة النظر في بنية النسق الإدراكي.

وقد بسّط آندي كلارك Andy Clark هذا المعنى ضمن مؤلفه: هجين مولود طبيعيا (Natural Born Cyborg) حين جعل الدهن شبكة تَوَزَّع وليس موضعا منغلقا، فتصبح الذاكرة مخطوطا بينيا تشارك في حملة الوسائط، وبصير الفعل المعرفي سيرا في بيئة من الأدوات كما يسير المعنى في بيئة من العلامات.⁹ وفي السياق ذاته يظهر عند كريس هابلز جراي Chris Hables Gray أننا "حيوانات تستخدم الأدوات"، وهذه الأخيرة هي تعريف لإنسانيتنا الفردية والمشاركة، وليست شيئا غريبا أو مدمرا لها.¹⁰ وبالتالي، فإن سيرة الإنسان مع أدواته تشبه سيرة اللغة مع متكلميها؛ كلاهما ينمو في حركية التبادل، ويستقر في الاستعمال، ويصوغ هوية تتجاوز أصلها الأول.

وفي الامتداد الاستشراقي لهذا الأفق تتبلور لدى بول Paul وكوكس Cox في كتابهما: أبعد من الإنسانية (Beyond Humanity) صورة مفادها أنّ التكنولوجيا جعلت حياتنا أطول وأسهل وأكثر أمنا، وبالتالي يستشرفان أنّ المستقبل سوف يتكوّن من عمليات اندماج أكثر حميمية، وكاملة، بين البشر والآلات. وهذا ما يتطابق مع رؤية مورافيتش في (آلة العقل) وكورزويل في (عصر الآلات الروحية)؛ حيث يتوقعان يوما أنّه يتمّ فيه تحميل الوعي البشري على آلة ويعيش إلى الأبد.¹¹

ليس هذا فقط، فسؤال الأصالة يأخذ منعطفًا آخر حين ينتقل من الجسد إلى اللسان؛ حيث تتكثف في اللغة ذاكرة الجماعة وأفقها الرمزي، فالعلاقة التي صاغها فرناند دي سوسير بين الدال والمدلول تشير إلى بنية تتعدى حدود الصوت والإشارة لتقوم على تراث من الاستعمالات، تتوارثه الذوات في صيرورة تاريخية. وفي هذا المستوى يظهر الفرق بين خطاب يتولد من تجربة معيشة، وخطاب يتولد من قدرة على ترتيب الصيغ؛¹² الأول

ينفتح على أفق المعنى بما هو حدثٌ بين ذواتٍ، والثاني يتحقق في صورة أداء متماسك ضمن نسق من العلاقات الصورية.

ومن هنا يتخذ النقاش صورة تتجاوز ثنائية التبدّل والارتقاء، ليصبح بحثاً في كيفية إدراج الفاعل التقني ضمن الأفق التداولي للجماعة. وقد صاغ توم غروبر Tom Gruber هذا الموقف في صورة تمثل قدرة المجتمع الإنساني على إبرام ميثاق يعترف بالهجين ويعتبره شريكاً وجودياً وجزءاً من صيرورة التطور البشري، وهو المعنى الذي ركز عليه ستيوارت راسل وبيتر نورفيج حين نظراً لما يسمى بالهندسة الأنطولوجية (Ontological Engineering)؛ حيث يعاد تمثيل العالم ككائنات تتداخل فيها الأنظمة الفيزيائية مع الوكلاء الاصطناعيين. وفي هذا المنظور، يصنّف الإنسان كنوع خاص من "الحيوان والوكيل" في آن.¹³

(2) في نسقية الخوارزم وانحباس المعنى: أزمة القصديّة في زمن المعالجة

يتحرك هذا المبحث ضمن مدار إشكالي تمليه تحولات الأفق التداولي في زمن السيادة الخوارزمية، بحيث انتقل الاهتمام من كفاءة الوسيط إلى سؤال الأهلية الحوارية لكيانات تعمل خارج تجربة المعنى. ويصير الفعل التواصلي موضع تفكير من حيث شروط إمكانه، مادام حضور الوجه الإنساني — بما هو حامل للقصديّة والمسؤولية — قد انحبس وراء نسق إجرائي مغلق.

وفي عمق هذا التحول تتعين فجوة بين معالجة البيانات (Data Processing) وبين فعل بناء المعنى (Sense-making)؛ فجوة يتكثف فيها فيض المعلومات على حساب القدرة على التقدير الكيفي، ويُسْتَأْنَف معها التساؤل حول إمكان اندراج الخوارزمية ضمن تجربة تداولية قوامها التزام أخلاقي إزاء الغير.

1-2 تلاشي اللوغوس أمام حتمية التكميم:

تتجلى الأزمة التداولية حين تتحول الوفرة المعلوماتية من فسحة للمعنى إلى حجاب يثقل الرؤية ويجمد القدرة على التلاقي التأويلي. في هذا الحيز، تتحول اللغة إلى وحدة قابلة للترميز، ويتزحزح اللوغوس من كحدث فاعل وخالق، فيغادر الخطاب مجال التجربة البينذاتية (Intersubjectivity) إلى فضاء إجرائي تضبطه صيغ النمذجة وآليات التحكم. معلنا عن انتكاسة فلسفية للذات المتحاورة.

أولاً: تآكل التداول في نسق الخوارزم

يستحضر هذا المقام التباين الجوهرى بين الفعل التداولي بوصفه نشاطاً إنسانياً خلاقاً، وبين معالجة البيانات بوصفها إجراءً آلياً أصمماً. فسيولة المعلومات الفائقة تولّد مأزقاً معرفياً يفرض إعادة النظر في طبيعة المعنى، حيث يتحول التواصل من تجربة بين ذوات قادرة على الفهم المشترك إلى سلسلة بروتوكولات تقنية خاضعة للتحكم والسيطرة.

إن استنطاق هذا الواقع يستدعي التذكر بجوهر التداولية، التي تجمع بين المعرفة الشاملة بالآخر، والإلمام العميق بمكوّنات عملية التخاطب، والقدرة على بناء سيرورة معرفية للعالم.¹⁴ يقدّم الذكاء الاصطناعي محاكاة دقيقة للنتائج الفكرية، لكنه يظل محروماً من الآليات الذهنية التي تمنح الخطاب نفساً ديناميكياً: المجاز، الاستنتاج الذاتي، التفسير الرمزي. فالتداولية كما يحددها فكويني، حلقة وصل بين العالم الفيزيائي واللغة، مجسدة البناء المعرفي وسيرورة الفكر الشامل،¹⁵ فيما تكتفي الخوارزمية بصناعة السطحيات من دون الانغماس في تفاصيل الروحانية التداولية.

يتكشف مأزق المعنى بصورة أكثر جلاءً في إفرازات الإعلام المعاصر، حيث تصبح متعة السرعة الفائقة والصورة المصطنعة سيدة المشهد على حساب العمق الدلالي، والمشكلة أن هذا العبث أضحى صناعة ثقافية تعلي من قيم المتعة اللحظية والاستهلاك الفوري،¹⁶ فتضيع بذلك ملامح القيم التواصلية بين تراكيب السيولة الافتراضية.

ويبرز هنا نموذج العالم اللساني رومان جاكبسون R.Jakobson للوظائف اللغوية، حيث يكتمل المعنى فقط بوجود الوظيفة الانفعالية التي تُعبّر عن ذات المرسل وكيانه الحي، والوظيفة التأثيرية الموجهة نحو المرسل إليه، وصولاً إلى الوظيفة المرجعية. فالتواصل، بهذا المعنى، بنية مركبة تتداخل فيها وظائف لسانية متعددة، ويستلزم كل فعل تواصلي حقيقي تضافر عناصر ستة (المرسل، المرسل إليه، الرسالة، المرجع، القناة، والسنن)، وما يقابلها من وظائف،¹⁷ ومن هذا المنطلق تتبدى الفجوة الجوهرية بين التداول البشري ومحاكاة الخوارزمية.

ثانياً: الآلات الروحية والخلع الوعي

يقوم الفعل التواصلي على مسافة أخلاقية تنشئ إمكان المواجهة بين الذات، تلك الفسحة التي يتكوّن فيها الاعتراف المتبادل ويتم صياغة المعنى بوصفه حدثاً حياً. ضمن الفضاء الخوارزمي تتلاشى هذه المسافة، فتستبدل بفيض معلوماتي متصل يبتلع خصوصية المخاطب ويسلب المتلقي فاعليته التداولية.

وفي هذا السياق، يقدّم دومينيك وولتون Dominique Wolton نقداً صريحاً لهذا المنطق التقني الذي يتجاهل التواصل بوصفه فعل مقاومة، مشدداً على أنّ التصورات المعاصرة غالباً ما تتجاهل التواصل، إلّا لإدانته، وتنظر إلى المتلقي في الفضاء الرقمي كوحدة استقبال سلبية للبيانات، مع تجاهل تام لتلك المقاومة التي يمكن للمتلقي أن يشهدها في تواصل الوجه لوجه.¹⁸ وعلى هذا، فإن غياب المقاومة الأخلاقية أمام الخوارزمية يحوّل الفعل التواصلي من تجربة وجودية حرة إلى طاعة خفية لسرعة الخوارزم.

إنّ هذا الانسداد التداولي هو ثمرة هيمنة أيديولوجيا التقنية المفرطة التي قبضت على مفصل الجيل الحالي، مغيبة النقاشات النظرية حول علاقة الإعلام بالحرّيات الفردية والتنوع الثقافي. فبدلاً من أن يكون التواصل فضاء للاعتراف بذكاء المتلقي وقدرته على

المقاومة، نجد تكرارا للمخاوف التاريخية ذاتها التي رافقت ظهور الراديو والتلفزيون؛ وهي الخوف من الصورة الجماهيرية أمام ضعف الثقافة النقدية.

ويؤكد وولتون أن عدم أخذ الرهان المعرفي والسياسي للتواصل على محمل الجد، قد أفسح المجال لسيطرة الجمهورورية التي ملأت الفراغ المعرفي بتلقين آلي يعيب وجه الآخر. وإنّ تعميم الجمهورورية والأيديولوجية التقنية هما أجلى مؤشرين لشكل من أشكال خيانة المثقفين.¹⁹

وبناء عليه، فإنّ محاولة تحميل الوعي في آلات رقمية تظلّ طيفا واهما؛ لأنّ الوعي ليس بيانات تُنقل، بقدر ما هو تجربة مواجهة تتطلب جسدا وحضورا وجهها لوجه. إنّ ارتكان الوعي لنمط التحميل هو في حقيقته تخنيط للوغوس، وقتل لتلك المقاومة التي يملكها المتلقي الواعي أمام سرعة الخوارزمية، ليظلّ التلاقي التداولي مع الآلة مجرد محاكاة تفتقر إلى الاعتراف المتبادل الذي هو روح كل تواصل حقيقي.

2-2 الأفق التداولي بين غواية التّمدجة التقنية وصرامة التحقق الفلسفي:

يتوجه النظر في هذا المطلب إلى تعيين شروط قيام الفعل التداولي في بيئة تتوسطها البنية الخوارزمية، وذلك بتمييز منهجي بين رتبتين: رتبة التبادل الإجرائي للعلامات، ورتبة اللقاء الذي تتأسس فيه الذوات بوصفها ذواتا متخاطبة. لهذا يعتبر هذا التمييز حدا فاصلا بين معنى المشاركة في بناء العالم المشترك وبين مجرد محاكاة صورية لأفعال الخطاب.

ومتى تقرر أن الفعل التداولي يفترض قصدا ومسؤولية واعترافا متبادلا، لزم النظر في مدى قابلية النسق الخوارزمي لحمل هذه الشروط. ذلك أنّ كفاءة المعالجة — مهما بلغت من الدقة والسرعة — إنما تنتمي إلى نظام المطابقة بين المعطيات والنتائج، في حين ينتمي المعنى إلى نظام آخر قوامه التوجه القصدي وإمكان الخطأ والصواب في أفق مشترك. فبين النظامين اختلاف في الجهة لا في الدرجة، ومن ثمّ يمتنع ردّ أحدهما إلى الآخر بغير مغالطة في الحدّ.

وعلى هذا الأساس ينتقل البحث من وصف الأداء التقني إلى مساءلة مشروعية الإسناد التداولي؛ إذ لا يكفي أن تنتظم العلامات في صورة خطاب حتى يثبت لها حكم الخطاب، بيد أن هذا الأخير، بالمعنى الذي استقر في الفلسفة التداولية، فعل يترتب عليه التزام، ويؤسس لعلاقة معيارية بين ذوات قادرة على التحمل والمساءلة. فإذا كانت البنية الخوارزمية تحكم انتظام الدوال وتضمن سلامة الإحالة داخل النسق، فإن ذلك كله يظل واقعا في رتبة التمثيل الصوري ما لم يقترن بأهلية الدخول في أفق الاعتراف المتبادل الذي يقوم به العالم المشترك.

أولا: إشكال الإسناد في الهجين الرقمي

يصوّب النظر في هذا المقام إلى تقويم دعوى الإسناد التداولي للآلة، من جهة ما يقتضيه الفعل الخطابي في حده الأنطولوجي. ذلك أن التواصل — عند التحقيق — ليس انتظام دوال في نسق إجرائي، ولكنه قيام علاقة معيارية بين ذوات قادرة على قصد المعنى، وحمل تبعاته الأخلاقية. ومن ثم يتبين أن التساؤل في حقيقته تساؤلا عن أهلية الدخول في أفق الخطاب: أيتحقق ذلك بكفاءة المعالجة، أم بشرط الوعي المتجسد الذي به ينعقد مقام التخاطب؟

إنّ الفعل التداولي، بحسب حده، صناعة عالم مشترك بعيدا عن الأتمتة (Automation) أو السيولة الخوارزمية، قوامه الإفهام والفهم والتفاهم؛ وهي أفعال ينعقد بها سلطان العقل العملي في تدبير الاختلاف وفض النزاع.²⁰ وفي هذا المقام يكتسب القول وزنه الوجودي، لأنه يصدر عن ذات تحضر بوجهها وتاريخها وقصدها. أما الانتظام الخوارزمي فغاياته إحكام المطابقة ضمن النسق، وهو ضرب من إحالة صورية لا يجاوز رتبة التمثيل.

ومن هنا يظهر حد المفارقة: إذ تقوم دعوى الإسناد على تشابه في صورة الأداء، مع اختلاف في شرط الإمكان، فالآلة تعمل على إعادة إنتاج السنن وفق حتمية البرمجة، والذات المتخاطبة تبتدع المعنى في كل لقاء على مقتضى الحرية. وبهذا يتبين أن أهلية

المحاورة منزلة تكتسب بالقدرة على القصد وتحمل مسؤولية القول؛ وهو الشرط الذي به يقوم الفعل التداولي قياما تاما.

ثانيا: أبوريا التواصل في فضاء الروحية الرقمية

يفضي النظر في دعوى "الآلات الروحية" إلى حد تتكشف عنده مفارقة الإسناد التداولي؛ حيث تقوم المحاكاة مقام الوعي في صورة الأداء، بينما يبقى شرط الفعل التواصلي معقودا على ذات قاصدة تتحمل تبعات قولها ضمن أفق معياري مشترك. فالتخاطب تدبير للاختلاف قبل أن يكون تبادلا للمعلومات، وبه تقوم صناعة المعنى في المجال الإنساني.

وقد نبّه وولتون إلى أنّ الافتتان بالآلة أزاح سؤال المقاومة الكامن في المتلقي، فانتقل التواصل من كونه علاقة تأويلية مركبة إلى انتظام وظيفي للرسائل.²¹ وفي هذا التحول يفقد الخطاب شرطه الحوارية، لأن الفعل التواصلي — على مقتضى تحليل هابرماس — ينعقد بين ذوات معترف بها، تنتظم أفعالها ضمن شبكة من التوقعات المعيارية التي يقوم بها عالم مشترك.²²

من هنا، يظهر وجه الأبوريا (Aporia)؛ إذ يستحيل نقل الوعي على مثال نقل المعطيات، لأن الوعي حضور يتعين بالمسؤولية، وليس بنية تُستنسخ بالترميز. فالانتظام الخوارزمي يبلغ غاية الإحكام في مستوى المطابقة، غير أن الفعل التواصلي يقوم في رتبة أخرى، هي رتبة القصد والاعتراف المتبادل.

ومن ثم يصبح القول بتحميل الوعي صورة من صور التمثيل الرياضي لخبرة وجودية، وتقول "أنسنة الآلة" إلى مجاز تقني لا يرقى إلى منزلة الإسناد. وعلى هذا الأساس ينكشف الرهان على تواصل خوارزمي مكافئ للفعل التداولي بوصفه رهانا على تشابه في الصورة مع اختلاف في شرط الإمكان.

(3) نحو تمزق الفعل التواصلي واستلاب اللوغوس التداولي:

إنّه ليس خافيا أن يتحول الفضاء الرقمي إلى ساحة يختبر فيها المعنى حدوده، حيث تتحول المعلومات من أفق مفتوح للفهم إلى نسق محكوم بمعايير المعالجة والخوارزمية. هنا، يتلاشى حضور الذات وتتآكل قدرة الإنسان على الإسناد، فيصير اللوغوس التداولي رهينا بمحاولات الاحتفاظ بانسجامه بين الفهم البشري والهيمنة الرقمية، فتصبح مسألة الإسناد محكومة بتساؤل المآل: أي صورة للذات تتشكل ضمن الفضاء الخوارزمي، وأي أفق للمعنى يظل قابلا للانفتاح خارج اقتصاد البيانات؟.

3-1 ارتهان الكينونة وتبدد الخصوصية التداولية:

يتكشف انزياح الفعل التداولي عن حضوره الوجودي حين تتحول القدرة النقدية والحضور الواعي إلى نسق خوارزمي يوزع المعنى ضمن رقعة بيانات صلبة. الرقمنة الشاملة تعمل كسديم يبتلع الذات المتكلمة، فتذوب خصوصيتها في سيولة رقمية، ويصبح الإنسان محكوما بمسرحيات البرمجة الصماء، محروما من روح وحرارة المبادرة، وعنفوان الحرية، وحق واستحقاق حضور النقاش الوازن.

أولا: غياب القصدية وانكفاء الأثر

تتبدى أزمة المعنى التي تفرضها السيولة المعلوماتية بوصفها حدا أنطولوجيا تقف عنده الكفاءة الإجرائية للذكاء الاصطناعي عاجزة؛ فالفعل التداولي الحق لا يتأسس على تراكم المعطيات، وإنما ينهض على حدس الإصابة (Pertinence) بما هو ملكة تمييزية موصولة بسياق الوجود الفعال. فهذا الحدس يصدر عن اقتران القول بأفقه المقصدي، وهو اقتران لا تقوم له قائمة في نظم رقمية مفصولة عن الدارة الذهنية والعصبية التي تمنح العبارة ثقلها الأنطولوجي. وفي هذا السياق، تبرز تحليلات العدمية الرقمية تمثل فيضا عاجزا أمام بلوغ مرتبة الإصابة التداولية؛ إذ تعجز الخوارزميات عن إنتاج معنى حقيقي يلامس كينونة الذات المتكلمة.²³

إنَّ الهرولة التقنية نحو تبني الذكاء الاصطناعي كبديل تداولي لا تعدو كونها تجسيدا لما وصفه باومان بالتقدم السائل؛ وهو مسار لا يعكس خيارا واعيا بقدر ما يعبر عن عملية استسلام وديع²⁴ لسلطة الخوارزمية، مما يؤدي في نهاية المطاف إلى تفرغ الفعل التواصلي من صلابته القصدية، وتحويله إلى مجرد انصياع لمنطق السوق التقني.

علاوة على ذلك، فإنَّ هذا الانحلال في المعنى يعود بالدرجة الأولى إلى انقطاع النظر في الرابطة العضوية بين الاتصال والبنية الاجتماعية؛ الأمر الذي أدى إلى انزياح الثقافة النخبوية لصالح نمط اتصالي جماهيري يفتقر للعمق.²⁵ وفي هذا الفضاء الرقمي الصاخب، تصبح الحياة بلا معنى لأن الإعلام كوسائط لنشر المعلومات قد طغى على التواصل كفعل تفاهي؛ فبينما يمتلك الإنسان اليوم أدوات هائلة للنشر، فإنَّه يزداد عزلة وغيابا عن المعنى، غارقا في ضجيج تقني لا يحقق أي اتصال حقيقي بالذات أو بالآخر.

ثانيا: هشاشة التداولية في مجتمع الأئمة

يتعين الخطر الذي يتهدد الأفق التداولي في إحالة الذات على عزلة تقنية مقنعة وناعمة؛ فيتم استبدال المسافة الأخلاقية التي بها انعقد اللقاء الحرّ بسيولة خوارزمية تمحو ملامح التفرد، فينقلب الخطاب من فعل اعتراف إلى آلية امتثال، وفي ظل هذا الزحف، تظهر خطورة التوحيد القسري الذي ينمط السلوك الإنساني ويحوّله إلى مجرد استجابات آلية لخوارزميات محددة سلفا، مما يؤدي بالضرورة إلى إحالة الذات من مقام المحاور إلى موضع المنفّذ.

ومن هنا تبرز ضرورة تأسيس نظرية نقدية للتكنولوجيا تحول دون انزلاق الفعل التواصلي نحو الفوضى "الأناوية" (Solipsism)²⁶ التي تقطع إمكان الاعتراف المتبادل؛ فمن دون هذا الضابط النقدي، ستستمر الأنظمة التقنية في فرض توحيد قسري يشوّه القيم الأساسية، ويفرغ القول من مسؤوليته وتحوّل التواصل إلى تداول إجرائي منزوع الأثر.

ولا يخرج التدفق المعلوماتي الذي تعد به الأتمتة عن منطق "الاستهلاك اللحظي" ضمن منطق السيولة الثقافية التي حللها باومان؛ فالمعلومة، مثلها مثل الموضة — كما سبق وأشرنا —، لا تقيم على معنى، ولكن تستهلك ذاتها في صيرورة التحديث الدائم، وتتسق تماما مع مفهوم الحركة الدائمة التي تظهر في حالة من التغير المستمر.²⁷ وبذلك يفقد الزمن التواصلي عمقه التاريخي، وتلقى الذات في راهن متحول لا يتيح لها تثبيت قيمة أو بناء أفق دلالي مستقر، فتصبح غريبة عن أثرها.

وتجدر الإشارة أن موضة التنميط هذه بالإضافة إلى أنها تمس اللغة في صميمها، فإنها أيضا تضرب الكينونة الإنسانية في عمقها؛ حيث يتحول الفرد من مواطن فاعل يحمل قيما ورؤى، إلى مستهلك رقمي مشدود إلى حاجات يقتضي إشباعها في الآن وهنا وحدها.²⁸

وهذا ما يضعنا أمام تحذير استشرافي غاية في الأهمية، حيث يتبين أن الرهان اليوم يتجاوز مجرد امتلاك التقنية إلى ضرورة تفعيل المهارات الناعمة (Soft Skills) التي من شأنها "أن تنقذ الإنسانية من الغرق في الصلابة، والتشتت، والضياح في المفترقات والمتاهات اللامتناهية التي تسيطر عليها التقنيات والآلات".²⁹

3-2 جدل الانبعاث بين غواية المجاز الرقمي واستعادة الأصالة الإنسانية:

ينعقد هذا المطلب في مقام إعادة فحص صكوك المشروعية التداولية ضمن المنعطف الرقمي، حيث يتم استئناف المسألة باعتبارها تحرير لمناط القول في كينونة أخذت تدخل طورها الما بعد رقمي. والمقام مقام إنشاء مانيفيستو (Manifesto) نقدي يضبط التخوم بين وعي حي متقوم بالقصد والمسؤولية، وبين نظام آلي قائم على المعالجة فقط؛ فتلتقي في هذا المعبر وعود التعزيز الخوارزمي مع مخاطر الاستلاب في أفق يتم امتحان معنى الإنسان فيه من حيث هو كائن مخاطب ومُخاطَب.

والمدار في هذا الجدل على إعادة ترتيب العلاقة بين الذات المؤتمنة وزمنها؛ إذ يصبح الزمن الخوارزمي زمنا مصمما لا يتم إدراكه من الحضور إلا قابلية القياس، في حين ينهض الزمن الإنساني على الأثر والإنشاء والائتمار الأخلاقي. ومن ثمّ يتحدّد وجه المسألة في تحرير الفرق بين توسعة أنطولوجية للأفق التداولي تعمل على إبقاء الإنسان مقام الشهادة على المعنى، وبين إدماج تقني يقود إلى تذويب الكينونة في سنن النمذجة الرياضية. وعند هذا الحد يتعين معنى الانبعاث أي استرداد الكائن لسلطانه التداولي بوصفه ذاتا مؤقّعة على أفعالها، وليست وحدة وظيفية داخل جهاز حسابي فحسب. وهنا يتبين أن الأصالة هي تأسيس لمرتبة من الحضور يتكامل فيها اللوغوس الائتماني مع الفعل التاريخي، ويتم بها استعادة قدرة الإنسان على إنشاء زمنه الخاص، زمن المبادرة وليس زمن الجدولة.

أولا: إشكال الإسناد في الهجين الرقمي

يتخذ مأزق الإسناد في الفضاء الرقمي صورة اضطراب في تركيبة البناء التداولي، حيث يتخلخل مقام التخاطب ويصير الفعل التواصلي أقرب إلى ممارسة منازحة عن شرطها الإنساني. وفي هذا الأفق يتكشف ما يمكن تسميته بالفوييا التواصلية؛ حالة من الاغتراب يتراجع فيها الأثر الديناميكي للكلمة أمام كفاءة إجرائية تشتغل على تحسين الإنتاجية وتُفقد المعنى حرارة النشأة. ويجري هذا التحول ضمن توتر عميق بين النزعة الفلسفية الإنسانية التي تصور جسم الإنسان باعتباره طبيعيا وعضويا، والبشر باعتبارهم أفرادا متفردين، يتمتعون بكرامة متأصلة³⁰، وبين نسق تقني يروم تقويض وترويض هذه الطبيعة عبر تقديم إجابات مبرمجة تفتقر لروح السؤال الوجودي.

ويكتسب هذا الهجين مداه النظري مع التصور التداولي عند هابرماس ورفاقه، إذ يؤكدون أنّ التواصل الحق يقتضي ذواتا فاعلة قادرة على تبرير دعاوى الصدق في عالم مشترك، عالم من الجدل العقلاني النقدي؛ وهو فضاء تشغيل ثقافي لا يكون الجدل

الممارسة الوحيدة فيه، وإنما هناك الإبداع، والطقس، والاحتفاء، والاعتراف، وكلها معلمة.³¹ وهو ما تفتقر إليه الخوارزمية التي تظل حبيسة النمذجة الصماء العاجزة عن إدراك المعايير الأخلاقية والاجتماعية التي توجه الفعل البشري.

ومن جهة أخرى تتخذ مسألة الذاكرة موقعها الحاسم في تشخيص الاغتراب المعرفي؛ فوفرة المعطى المعلوماتي تقتزن بانفصال عن سيرورة التملك الذاتي للمعرفة، وهو ما نبّهت إليه إلزا غودار Elsa Godart حين وصفت الفضاء الرقمي بكونه مستودعا قد "حرم الناس من ذاكراتهم"³² فينشأ نمط من التلقي يراكم المعطيات دون أن يتحول إلى خبرة، فتتباعد المعرفة عن مسار التكوّن الباطني للإنسان.

ويزداد هذا التباعد وضوحا في صورة العلاقة الرقمية التي حللها باومان ضمن أفق السيولة؛ علاقة "تعجز عن الإتيان بمالة اليقين"؛ فهي تفاعلات سائلة، هشة، وغير مستقرة، لا تبعث على الرضا التام ولا تبني معنى مشتركا.³³ هذا الوهن في طبيعة اللقاء الرقمي يحو ملامح العمق الإيتولوجي، ويضع الذات في حالة من العزلة السقيمة؛ حيث نستهلك معارف مصنوعة بلا ذاكرة تراكمية، ما يدفعنا إلى التأسيس لعدمية تواصلية تنمي وفرة المعلومة على حساب نموّ الذات.

وعند هذا المنعطف يرتفع مستوى الموضوع من حدّ التقرير إلى أفق النظر في المآل؛ حيث يستحيل السؤال التداولي امتحانا في مصير الكينونة الإنسانية ضمن أزمنة ما بعد الرقمنة، واستظهارا لقدرة اللوغوس على استئناف أثره في عالم تتكاثر وتتكاثر فيه الموجودات العددية.

ثانيا: ميتا-تداولية المصير

ينكشف أفق المصير التداولي في ظل صيرورة ما بعد الإنسانية بوصفه تحولا من انتظام المعنى إلى دينامية عددية لا تستقر على حد؛ حيث تظهر التقنية قوة تصريف كوني تشتغل على تذويب البنى الرمزية وتستبدل دراما الحقيقة بتقاطع أنساق حسائية. وعند

هذا الحد يتعرض اللقاء الحواري لتحويل ماهوي: من مجال مجاهدة تأويلية بين ذوات متقابلة إلى حيز تداول إشاري محكوم بصرامة الإجراء.

ويقتضي النظر في المآل استحضار مفهوم الذكاء التواصلي بما هو ملكة إبانة قصدية تتأسس على اقتران الدلالة بالحالة الذهنية الحية؛ وهو اقتران يستعصي على الصياغة الخوارزمية، لأن بنيتها تقوم على تداول الرمز دون سكنى المعنى. ولعلّ الحجة الأقوى في هذا الاستشراق هي ما قدمه جون سيرل في نقده اللاذع لاختبار تيورنج عبر تجربة الغرفة الصينية؛ حيث أثبت أنّ الآلة قد تنجح في معالجة العلامات وتحقيق نتائج مبهرة، لكنها تظل محبوسة في غرفة مغلقة تتلقّى أوراقا رسمت عليها علامات لا تفقه معناها.³⁴

ومن ثمّ يتعيّن أفق التداوليّة الآتية في صون ذلك الفرق الجوهرى الذى به ينهض إمكان الاعتراف المتبادل، وعليه يقوم العمومى الحوارى عصيا على الاختزال الأداى الرقى. فالتواصل فى معناه العميق هو رابطة معيارية تنشئ كينونة مشتركة وتتأسس أفقا للمعنى؛ وإذا ما تم حفظ هذا الأصل، أمكن للعقل أن يستأنف فاعليته داخل العمران التقنى دون أن يستحيل مجرد وظيفة فى صيرورته؛ وبه ينغلق أفق التحليل على شرط إمكان تداولى يصون المعنى من الاختزال الأداى.

خاتمة:

عند منتهى هذا المسار الحفرى فى أحوال الكائن التقنى وانعطافات الأفق التداولى، تنكشف المسألة فى صورتها الواضحة: امتحان يطال مقام الإنسانية فى أصل وضعها، حيث يتم استدراج اللغة إلى حومة الحساب، واستدعاء المعنى إلى محكمة الترميز. هنالك يتمايز ما هو محض معالجة عما هو سكنى فى القول؛ فالألسنة تحاكى، أما الإبانة التى بها يفتح العالم وتنظم الخبرة فى أفق مشترك فتبقى موصولة بنبض الكائن القاصد.

ومن ثمّ تتعين ثمرة هذا البحث فى حدود فاصلة بين صنيع الآلة وأثر الروح: تركيب يحسن انتظامه وتغيب عنه شرارة الدلالة، وتداول تتكاثر فيه العلامات ويقلّ فيه

الاعتراف. إن الذاكرة، وقد كانت وعاء التراكم الحي، آلت إلى مخزن للمعطيات، وانزاحت الذوات عن مقام الفاعلية القوية إلى رتبة التلقي المدار؛ فخبأ وهج التجربة، واستبدلت القرينة الحية بأثر رقمي بارد.

ومع ذلك يلوح في ثنايا هذا الانعطاف معنى آخر للمركزية الإنسانية، معنى مؤسس على ملكة احتمال الالتباس، وتدبير اللا تمام، واستثمار الغموض بوصفه مادة للخلق. تلك خصائص لا تنال بالدقة الصماء، حيث أنّ التواصل فعل قصدي استدلالي، مداره الفهم بوصفه خبرة عيانية تتخلق في سياق العيش المشترك، لا في حيز المناولة الرمزية.

وعلى هذا الأساس يتم إعادة ترتيب النسبة بين الإنسان وتقنياته؛ العمران الرقمي طور من أطوار الفعل البشري، معيار انتظامه حضور القاصد ووزن الكلمة بما هي منشأ المعنى ورابطة الاعتراف. وهنا يستأنف اللوغوس سلطانه القديم في صورة جديدة، فيصبح مبدأ كشف ومجال اشتراك. عند هذا الحد يستبين وجه التساؤل الآتي: بأي قدر نصوص القول مأواه، وللمعنى مجاله، وللإنسان منزلته في زمن استبد به التقييم؟

التوصيات والاقتراحات:

من قرار هذا التشريح الأنطولوجي ينبثق أفق عملي قوامه صيانة المقام الإنساني في حضرة الطوفان الرقمي، وذلك عبر جملة من المعالم التأسيسية التي تنتظم في صورة ميثاق تداولي جديد:

أولاً: في حق الخلوة من الوساطة الخوارزمية

أخلاقيات التخلف الرقمي (Digital Disconnection Ethics): نوصي بتجاوز دعوات الرقمنة الشاملة نحو إرساء حق الإنسان في العزلة عن الخوارزم؛ أي خلق مساحات تداولية خالية من الوساطة الآلية، حيث يمارس البشر نمطا من التفاهم البدئي الذي لا يخضع لرقابة النمذجة الرياضية.

ثانياً: في ترقية الكفاءة الوجودية ضمن الدرس التداولي

إدماج ملكة التمييز بين المعطى بوصفه مادة صامتة وبين الأثر بما هو واقعة معنى، حتى يصير المتكلم قادرا على تدبير فيض المعلومات دون أن يفقد مركزه القاصد. وهي كفاءة ترتبط بتربية الحس التأويلي أكثر مما تتعلق بمهارة الاستعمال.

ثالثا: في إرساء ميثاق للإبانة الإنسانية في الفضاء السيبراني

وضع سمة دالة على الأفعال التداولية الصادرة عن الأنظمة الاصطناعية، حفظا لصفاء النسبة بين القائل والقول، وصونا لوعي المتلقي من الالتباس الذي يقود إلى تآكل الاعتراف وتبدد المسؤولية بين طيات الهجين الرقمي.

رابعا: في رد اللغة إلى جسدها التداولي

توجيه البحث المستقبلي نحو وصل القول بسياقاته الحية: الموقف، والنبرة، والهيئة، وأحوال التلقي؛ حيث هناك تتكون حرارة المعنى وتتحقق فعالية اللوغوس بوصفه خبرة معيشة وليس مجرد ذبذبات مرمزة.

خامسا: في بناء أفق سيميو-تداولي رقمي:

تشجيع المقاربات التي تصل تحليل العلامة بسؤال القيمة، وتجمع بين اللسانيات وأخلاقيات التقنية، حتى يتم تدريس التحول الرقمي في ضوء أثره في بلورة المعنى وفي إعادة ترتيب مراتب الفاعلية التداولية.

المراجع:

1_ ستيفن بكو، نك بوستروم، التكنولوجيا والذكاء الاصطناعي: العقول الرقمية والأخطار العالمية، ترجمة وتقديم: حسين عبد الغني، رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، الطبعة الأولى، 2023، ص 18.

2_ مارتن هايدغر، الفلسفة في مواجهة العلم والتقنية، ترجمة: فاطمة الجيوشي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، 1998، (د ط)، الصفحة 62.

3_ ستيفن بكو، نك بوستروم، التكنولوجيا والذكاء الاصطناعي، ص 18، 19.

4_ نريمان كوسة، إيمان عامر، انحسار الإنسانية في عصر السيولة التكنولوجية: خطوة إلى الأمام خطوة إلى الخلف، مجلة الجامع في الدراسات النفسية والعلوم التربوية، الجزائر، المجلد 10، العدد 01، 2025، ص 4.

5_ محمد نور الدين أفاية، الحدائق والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة، نموذج هابرماس، أفريقيا الشرق، المغرب، الطبعة الثانية، 1998، ص 182.

6_ ستيفن بكو، نك بوستروم، التكنولوجيا والذكاء الاصطناعي، ص 19.

7_ المرجع السابق نفسه، ص 25، 26.

8- Stuart J. Russell, Peter Norvig, Artificial Intelligence A Modern Approach, Pearson Education Limited, United Kingdom, -8 Fourth Edition, 2022, page 19,20.

- 9_ ستيفن بكو، نك بوستروم، التكنولوجيا والذكاء الاصطناعي، ص 27.
- 10_ المرجع السابق نفسه، ص 26.
- 11_ نفسه، ص 26.
- 12_ جاكبسون، موان، ميكي، هابرماس وآخرون، التواصل: نظريات ومقاربات، ترجمة: عز الدين الخطاي، زهور حوتي، منشورات عالم التربية، المغرب، الطبعة الأولى، 2007، ص 11 و 12.
- 13-334,333 Stuart J. Russell, Peter Norvig, *Artificial Intelligence A Modern Approach*, page-13.
- 14_ عبد السلام عشير، عندما تواصل نُغيّر: مقارنة تداولية معرفيّة لآليات التواصل والحجاج، أفريقيا الشرق، المغرب، الطبعة الأولى، 2006، ص 18.
- 15_ المرجع السابق نفسه، ص 18.
- 16_ نريمان كوسة، الإعلام المعاصر والصناعة الثقافية في عصر الحداثة الفائقة من منظور جيل ليوفتسكي، مجلة التدوين، الجزائر، المجلد 14، العدد 01، 2022، ص 312.
- 17_ جاكبسون، موان، ميكي، هابرماس وآخرون، التواصل: نظريات ومقاربات، ص 10.
- 18_ دومينيك وولتون، الإعلام ليس تواصلاً، دار الفارابي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2012، ص 100.
- 19_ المرجع السابق نفسه، ص 101.
- 20_ نريمان كوسة، المهارات الناعمة: التواصل، التفكير النقدي، القيادة، دار رسائل للنشر والتوزيع، سطيف، الجزائر، الطبعة الأولى، 2025، ص 6.
- 21_ دومينيك وولتون، الإعلام ليس تواصلاً، ص 100.
- 22_ محمد نور الدين أفاية، الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة، نموذج هابرماس، ص 182.
- 23_ عبد السلام عشير، عندما تواصل نغير، ص 32، 33.
- 24_ زيعمونت باومان، الثقافة السائلة، ترجمة: حجاج أبو جبر، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 2019، ص 29.
- 25_ دومينيك وولتون، الإعلام ليس تواصلاً، ص 100.
- 26_ ستيفن بكو، نك بوستروم، التكنولوجيا والذكاء الاصطناعي، ص 17.
- 27_ زيعمونت باومان، الثقافة السائلة، ص 25.
- 28_ إلزا غودار، أنا أوسيلفي إذن أنا موجود، تحولات الأنا في العصر الافتراضي، ترجمة: سعيد بنكراد، المغرب، الطبعة الأولى، ص 21.
- 29_ نريمان كوسة، المهارات الناعمة، الصفحة 6.
- 30_ ستيفن بكو، نك بوستروم، التكنولوجيا والذكاء الاصطناعي، ص 13.
- 31_ بورغن هابرماس، جوديث بتلر، كورنيل ويست، تشارلز تيلر، قوة الدين في المجال العام، ترجمة: فلاح رحيم، دار التنوير للطباعة والنشر - مركز دراسات فلسفة الدين، بغداد، لبنان، بيروت، الطبعة الأولى، 2013، ص 205.
- 32_ إلزا غودار، أنا أوسيلفي إذن أنا موجود، ص 18.
- 33_ زيعمونت باومان، الثقافة السائلة، ص 27.
- 34_ آن رويول، جاك موشار، التداولية اليوم: علم جديد في التواصل، ترجمة: سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2003، ص 43، 44.